

## تصحيح المفاهيم

## التناقضات التي تسترعي الانتباه في كتابة أحوال الدكتور محمد حميد الله

د. محمد عمران الأعظمي  
مصحح دائرة المعارف  
العثمانية

الحمد لله فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، والصلاة والسلام على البدر الطالع من ثنيات الوداع، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعه خير أتباع، وبعد: فلا يختلف اثنان في أن الكتابة حول شخصية فذة كالـدكتور حميد الله رحمه الله ليست سهلة ميسورة، بل هي مسؤولية جسيمة تنكسر لها الخواصر، وتذوب بها الخواطر، فلا يتضلع بها إلا من كان مقداماً مشاقاً، ولسمو الهمة مصداقاً، متوخياً للدقة والعناية، راعياً للمبادئ الكتابة والتسجيل كل الرعاية، ومن حسن حظي أنني قرأت جانباً كبيراً من أحوال الدكتور، على مر السنين والشهور، واسترعى انتباهي ما ألفت في تلك الكتابات من التناقض، والتنافي والتعارض، وإذا لم تكن هي مدهشات مطبعية فهي أخطاء فادحة، للمستوى المطلوب قاذحة. أما التناقضات الموجودة في تاريخ ميلاده حسب التقويم الهجري فقد كتب الدكتور حسن الدين أحمد "إن رسائل الدكتور تفيد بأنه ولد في محرم سنة ست وعشرين وثلاث مائة بعد الألف" أي ما يوافق سنة ثمان وتسع مائة بعد الألف الميلادي، ولم يحدد الكاتب اليوم واقتصر على الشهر والسنة، وأما الأستاذ/ عبد الرحمن مؤمن والأستاذ/ خورشيد أحمد فقد اتفقا على أن تاريخ ميلاده سادس عشر محرم سنة ست وثلاثين، وهذا الخطأ ربما يكون تطرق من قلة شعور قارئ الملازم بالمسئولية، فإن تاريخ ميلاده الصحيح هو: سادس عشر محرم سنة ست وعشرين، كما اتفق عليه شاه بليغ الدين والأستاذ/ عبد القيوم قريشي، وشاه بليغ الدين لقد تفرد بذكر يوم ميلاده وهو يوم الأربعاء. والعجب كل العجب من الأستاذ/ خورشيد أحمد—إذا رفضنا جواز الخطأ المطبعي—أنه ذكر في أخريات مقاله أن الدكتور لقد عاش خمسة وتسعين عاماً في هذا العالم الزائل، فمن ولد عام ست وثلاثين وثلاثمائة بعد الألف الهجري ولحق بالرفيق الأعلى في غضون عام اثنين وعشرين وأربع مائة بعد الألف من نفس التقويم كيف تمتد حياته على خمسة وتسعين عاماً والحساب بسيط لغبي أو نشيط.

وأما تاريخ ميلاده حسب التقويم الميلادي فإن الدكتور حسن الدين أحمد في مقال له آخر، والأستاذ عبد الرحمن مؤمن والأستاذ/ خورشيد أحمد والأستاذ/ عبد القيوم قريشي وخاجا عبيد الله كلهم اتفقوا على أنه كان تاسع عشر فبراير سنة ثمان وتسع مائة بعد الألف، ولكن شاه بليغ الدين وافقهم على الشهر والسنة وخالفهم في اليوم، وحسب نصه "إن تذكرة القرآن التي ألفها الدكتور نفسه فتأريخ ميلاده على الصفحة الخامسة والثلاثين منها هو السادس عشر من محرم سنة ست وعشرين، الذي يوافق حسب تقويم ديغلوت (المطبوع في دار الطبع الرسمي حيدر آباد) اليوم الثامن عشر من فبراير من السنة المذكورة" هكذا وقع فرق يوم واحد. فهذه هي الأقوال المتضاربة بشأن تاريخ ميلاده حسب التقويم الهجري والميلادي، ولم يتوقفوا لهذا الحد، بل اطرءوا إلى الاختلاف في مبلغ عمره، فلقد كتب الأستاذ خورشيد أحمد أنه توفي وعمره خمسة وتسعون عاما بينما كتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه توفي وعمره أربعة وتسعون عاما.

وإن جميع كتاب سيرته أو المترجمين له لقد اقتصروا على أنه ولد في حيدر آباد الدكن ولكن الأستاذ/ عبد الرحمن مؤمن لقد أضاف أن الدكتور ولد في حي "كاتال ماندي" من أحياء حيدر آباد، وادعى شاه بليغ الدين أن الدكتور ولد في بيت آبائه، الكائن في "فيل خانه"، وقال عن بيته في "كاتال ماندي" "الأغلب أن والد الدكتور اشتراه وسماه "خانه خليل" فهل كان كاتال ماندي في منطقة فيل خانه؟

وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور له أخوان وأختان، وكان الدكتور أصغر من الأخوين وأخت، وسمى الأخوين حبيب الله وصبغة الله، والأخت الكبرى أمة العزيز، والصغرى حبيبة الرحمن، بينما الأستاذ عبد الرحمن مؤمن ذكر أن الدكتور له أخوان وخمس أخوات، والدكتور كان أصغرهم جميعا.

وذكر الدكتور حسن الدين أحمد وشاه بليغ الدين أن الدكتور التحق بقسم الدينيات في الجامعة العثمانية سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة بعد الألف، ولكن الأستاذ عبد الرحمن كتب أنه التحق بالجامعة العثمانية سنة أربع وعشرين.

وكتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أن الدكتور نجح في امتحان الثانوية كمرشح خاص بينما كتب شاه بليغ الدين أنه نجح في الثانوية من دار العلوم.

وكتب الدكتور حسن الدين أحمد أن الدكتور حميد الله تلقى تعليمه البدائي في دار العلوم والجامعة النظامية والتحق بالجامعة العثمانية عام ثلاثة وعشرين وكتب /شاه بليغ الدين أيضاً أنه التحق بالجامعة العثمانية عام ثلاثة وعشرين وكتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه تعلم في دار العلوم في البداية حتى الصف السادس ثم التحق بالجامعة النظامية، ونجح فيها في امتحان المولوي الكامل عام أربعة وعشرين، والتحق في نفس العام بالجامعة العثمانية، ففي تاريخ التحاقه بالجامعة العثمانية فرق سنة واحدة فيما بينهم.

وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور نال شهادة "دي فل" من جامعة بون ألمانيا سنة اثنتين وثلاثين، بينما الشيخ رضوان أحمد القاسمي يستبعد هذا التاريخ ويبرهن على أنه يكون نال الشهادة المذكورة سنة ثلاث وثلاثين.

وكتب الدكتور حسن الدين أحمد أن الدكتور حميد الله لقد نال شهادة الدكتوراه على أساس الوثائق السياسية من جامعة باريس عام ثلاثة وخمسين وتسع مائة بعد ألف. وهناك إمكانية أن عدد خمس وثلاثين انقلب إلى ما ذكرناه، وشاه بليغ الدين ذكر عام ظفـره بالدكتوراه، أنه خمسة وثلاثون، بينما كتب الأستاذ عبد الرحمن مؤمن أنه نال الدكتوراه عام ستة وثلاثين.

وأما تضارب أقوالهم في عدد اللغات التي تُرجم فيها القرآن (أي كتابه القرآن في كل لسان) فبعضهم يقول: تُرجم في مائة وخمس وعشرين لغة، وبعضهم يدعي: في مائة وعشرين لغة، ويقول الدكتور حسن الدين أحمد أن عدد اللغات في الطبعة الرابعة بلغ أربع مائة لغة، فيرتفع الخلاف بأن هذه الأعداد إنما ترجع إلى فترات زمنية متعددة.

وإنما يستفحل اختلافهم في تحديد عدد مقالاته وبحوثه، فالأستاذ خورشيد أحمد يقول: إن عدد مقالاته ينوف على المائة، وعدد مؤلفاته الصغيرة والكبيرة هو مائة وخمسون كتاباً، بينما الدكتور حسن الدين أحمد يدعي أن عدد مقالاته خمسون وتسع مائة وألف مقال (أي ما يقارب عشرة آلاف صفحة)، وعدد مؤلفاته أربعة وستون ومائة، وشارل الآخرين في بعض الكتب، أي ما يقارب عشرين ألف صفحة، وإذا قمنا بإعداد قائمة ما ألف في سبع لغات ربما غطى عشر مجلدات، هذا وكتب شاه بليغ الدين أن عدد مقالات الدكتور حسب بيان الدكتور نفسه ينوف على ألف، وعدد مؤلفاته أربعة وستون ومائة، ويكشف القناع عن نقطة هامة في هذا

الخصوص ويضيف: وفي رسائله يوجد بعض النقص والزيادة في العدد، وعلى هذا فلا اضطراب في عدد مؤلفاته، ولكن الفرق في عدد مقالاته بين مائة وألف لفرق كبير يستوقف القارئ تماماً. وكتب السيد / ام. اتش. عسكري أن الدكتور توجه إلى أوربالنيل التعليم العالي في جامعاتها في العشرة الثانية من هذا القرن، وكيف يمكن هذا إذ أنه تحصل في الجامعة العثمانية عام ثلاثين وتسع مائة بعد الألف، فالصحيح في هذا الباب أنه غادر البلاد في بداية العشرة الرابعة كما صرح به الكتاب الآخرون.

وكتب الدكتور عفان سلجوق أن الدكتور مازال ثاوياً في باريس منذ بداية الخمسينات بينما سجل الآخرون عام ثمانية وأربعين في باب حلوله وإقامته في باريس.

والذي يبعثنا على الاستغراب بصفة خاصة هو اختلافهم في بيان شقة الدكتور في باريس، بينما كل واحد منهم لقد زار الدكتور في تلك الشقة، وتمتع فيها ولو لمدة قليلة بضيافة الدكتور ومحادثاته، ورؤية ملابساته، وبالرغم من أنهم شاهدوا الشقة المذكورة بأم أعينهم وفي ضوء النهار الساطع وتكلفوا حتى بعد السلايم المؤدية إلى شقة الدكتور بأنها مائة وعشرون سلماً، ووصفها بعضهم بأنها خشبية، ومع ذلك فلم يتفقوا على رقم الطابق الذي تقع فيه الشقة، فقد كتب الدكتور أحمد عبد القدير أنه صعد السلايم وضغط على جرس الباب في الطابق الرابع، وكتب الدكتور رضوان علي الندوي أن الناس أفادوه في باريس أن الدكتور إنما يسكن في الطابق الرابع من البناية الفلانية وكتب الأستاذ / عبد الرحمن مؤمن أيضاً أن الدكتور كان يسكن في الطابق الرابع والأخير من البناية، وكتب الأستاذ خورشيد أحمد أيضاً أن الشقة التي استأجرها الدكتور في باريس كانت في الطابق الرابع حيث لا توجد المصاعد، بينما كتب ام. اتش. عسكري أن الدكتور يسكن في الطابق السادس، وكتب شاه بليغ الدين أن الدكتور استأجر غرفة صغيرة على الطابق الثالث أو الرابع: والدكتور نفسه كان يكتب في بداية عنوانه رقم: ٤.

ولم يتوقفوا على اختلاف الطابق بل اختلفوا في وصف البناية فقد وصفها شاه بليغ الدين والأستاذ عبد الرحمن مؤمن بأنها قديمة، وقال الدكتور رضوان علي الندوي: إنها بناية قديمة قوية، ووصف السيد ام. اتش. عسكري البناية بأنها متناهية في الضعف والتقدم.

وقال الدكتور حسن الدين أحمد في معرض الإلمام بالوقائع التي استخرجها من رسائل الدكتور: إن الشقة لقد تم إخلاؤها في ديسمبر عام ثلاث وتسعين، وادعى شاه بليغ الدين أن تلك

الغرفة مازالت في قبضة الدكتور بعد، وأن كتبه وأمتعته موضوعة هنال، حتى وأن بريده إنما يصل على نفس العنوان بينما هو مقيم في أميركا، وهذا الحديث يرجع إلى سنة ست وتسعين فصاعداً.

وكذلك اختلفوا في مشيته فقد كتب شيخ حيدر المحامي أنه كان يمشي الهويناً، وأنه لم ير الدكتور طيلة حياته ماشياً في سرعة، وكتب الدكتور عفان سلجوق: وكان الدكتور يمشي في سرعة حتى أنني كنت أواجه الصعوبة في أن أسايره، وإنما يرتفع الخلاف إذا قلنا: إن السرعة والبطء في المشي خاضعتان لعلل وأسباب.

وبالإضافة إلى هذه التناقضات فقد صدرت من الكاتبين أخطاء عديدة يأتي على رأسها التوفيق بين السنين الهجرية والميلادية فعلى سبيل المثال كتب شاه مصباح الدين شكيل: أن الدكتور لقد أغمي عليه وهو في صلاة الجمعة في المسجد الجامع بباريس وذلك في غصون رمضان سنة سبع عشرة وأربع مائة بعد الألف، وكتب مصباح الدين التاريخ الموافق الميلادي بين الحاصرتين وهو (تاسع عشريناير سنة ست وتسعين وتسع مائة بعد الألف) فالسنة الميلادية صحيحة، لأن ام. اتش. عسكري - هو الآخر - كتب بأنه علم بأن الدكتور لقد تعرض لإغماءة وهو يصلي الجمعة في المسجد، وذلك في يناير من العام المنصرم أي ستة وتسعين، واستطرد أيضاً: كتبت سديدة إلى ممتاز مظهر قريشي في أغسطس سنة ست وتسعين أن صحته جدها لقد تحسنت، فالعام الهجري - والحالة هذه - لا ينسجم مع رمضان سنة سبع عشرة، بالسنة ست عشرة، فإن سنة ست وتسعين حسب التقويم السعودي (ويمكن فارق يوم أو يومين) إنما انتهت في شعبان سنة سبع عشرة، ولكن الأيام العشرة الأخيرة من يناير سنة ست وتسعين إنما وقعت في رمضان سنة ست عشرة.

وأما محمد كمال الدين - وهو من ذوي قربي الدكتور - فإنه صب مجهوداً كبيراً في تسجيل أعمال الدكتور العلمية، ولكنه جانب التصدي الميداني، فبعض ملاحظاته حول أعمال الدكتور العلمية لا تتفاعل مع الواقع، فمثلاً كتب محمد كمال الدين: "إن الدكتور لقد بحث في مكتبة مجتهد شيعي في لکناو واستخرج لا واحداً بل اثنين من كتب محمد بن حبيب: كتاب المحبر وكتاب المنق، وقام الدكتور بتصحيحه وطبعته دائرة المعارف".

أما استخراج كتاب المحبر من المكتبة المذكورة فلا يمت إلى الواقع بأية صلة، لأن الدكتور حميد الله نفسه كتب في كلمة الختام "قد تم بعون الله الودود طبع كتاب المحبر الأنيق الذي لم يصل إلينا إلا نسخة واحدة خطية، وهي محفوظة في خزانة كتب المتحف البريطاني بلوندر أو لا يعرف له نسخة غيرها في جميع العالم".

انتهت عبارة الدكتور محمد حميد الله بدون وكس ولا شطط، وهي تبرهن في كل وضوح أن نسخة المحبر الوحيدة هي محفوظة في مكتبة المتحف البريطاني لا غيرها.

وكتب محمد كمال الدين: إن الدكتور قام بتصحيحه، والواقع أن على غلاف المحبر تبدو هذه العبارة "وقد اعتنت بتصحيح هذا الكتاب الدكتورة الأنسة إيلزه ل. ش. إحدى العالمات بأميركا" فالصحيح أن الدكتور لقد بدأ التصحيح، ولم يعرف أن الأنسة المذكورة لقد فرغت من تصحيح الكتاب أعلم أصحاب الدائرة بذلك، وتامم القصة لقد ذكرها الدكتور بقلمه في كلمة الختام التي جمع فيها كل تفاصيل الكتاب، ولا ننكر على أية حال مشاركة الدكتور في تصحيح هذا الكتاب.

وأما استخراج كتاب المنق من مكتبة المجتهد الشيعي بلكنافلم يحرز الدكتور فيه قصب السباق إذ سبقه إلى ذلك غيره كما يبدو من مقدمة المصحح لكتاب المنق، وهو خورشيد أحمد فارق أستاذ آداب اللغة العربية بجامعة دلهي، وحسب نصه وفصه: "وفي سنة خمس وعشرين وتسع مائة بعد الألف فقد سمع بعض رجال العلم في الهند عن المنق من بينهم الأستاذ الميمني والسيد سليمان الندوي فزاروا مكتبة المجتهد المذكور وقرأوا المنق وعرفوا ما احتواه من المعارف القيمة".

وكتب محمد كمال الدين عن تاريخ البخاري المسمى بالتاريخ الكبير: "لقد طبعت دائرة المعارف ثلاثة أجزاء منه ولم يوجد الجزء الرابع الأخير في أي مكان فبحث الدكتور عنه واستخرجه بعد جهود دامت أسابيع".

هذه كتابة عشوائية لم يوفق الكاتب فيها لتقصي الحقائق، فالكتاب في أربعة أجزاء وكل جزء يحتوي على قسمين، ومن أعجب العجائب أن دائرة المعارف إنما طبعت أولاً الجزء الرابع بقسميه كما يبدو من خاتمة الكتاب، وذلك سنة إحدى وستين وثلاث مائة وألف من الهجرة، وأما الأجزاء الثلاثة الأولى فقط طبعت في السنوات المتلاحقة كما يبدو من أغلفتها، والواقع أن

الجزء الثالث لم يطلع عليه أهل الدائرة، ولقد كتب مصحح هذا الجزء مولانا الكبير أبو الوفاء الأفغاني رحمه الله خاتمة الطبع وها هو نصها: "وبعد فبشرى لك أيها الأخ الكريم أن المجلد الثالث من التاريخ الكبير قد لبس الآن حلية الطبع وتزين بها بعد ما ينس منه طابوه، فيا طوبى لمن ظفر به من أصحابنا (حفظه الله) في مكتبة كوبرولو بالأستانة" ومع أن الشيخ الأفغاني لم يذكر اسم محمد حميد الله صراحة، ولكن كل الدلالة تشير إلى أن الدكتور حميد الله هو الذي قام باستخراج هذا المجلد من مكان مكتبة كوبريلو.

وجانب آخر من الصورة أن الكاتبين كما عزا إليه ما لم يقم به، نسوا إسهامه الجبار في اكتشاف بعض الكتب النادرة فلولا له لما خرج عن دائرة الإمكان اختفاء تلك الآثار ليو مناهذا، وعلى سبيل المثال فقد كتب أصحاب مكتبة كوبرولو على ناصية كتاب "مصنف ابن أبي شيبة" بينما كان أصل الكتاب "سنن سعيد بن منصور" وابن أبي شيبة وسعيد بن منصور معاصران، فاختلط الأمر بينهما على من قام بإعداد الثبت، ولكن الدكتور حميد الله فرق بينهما وميز المجلدات بعضها من بعض، وهذا أمر - حسب قوله - لا يصعب على من حرفته الورقة وخدمة العلم، ومن أراد الاطلاع على هذا في كل بسط وتفصيل فليراجع حكاية الاكتشاف بقلم الدكتور نفسه في بداية سنن سعيد بن منصور تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي.

وعصارة الكلام أن من واجب المعتنين بخدمات الدكتور حميد الله أن يصبوا جهودهم على توحيد أحواله، لا يختلف بيان زيد عن بيان عمرو، فإن الواقع أن عجلات الزمان كلما دارت، وكلما تطاول العهد على وفاته، تلاشت قوى الباحثين وخدمت شعلة التحقيق وأصبح تقصي الحقائق من الصعوبة بمكان، وأما في الوقت الراهن فإن عارفه وذويه كثير وهم أعلم بأحواله وأخبر بأسراره، فتقل إمكانية تطرق الخطأ في سرد سيرته وتحديد ميرته، فياحبذا لو وجد اقتراحي هذا المتواضع أذانا صاغية وقلوبا واعية، وأجرهم على الله وما عند الله خير وأبقى.